وَدَاعاً يَا جَدَّتِي

الدكتور طارق البكري

رسوم إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

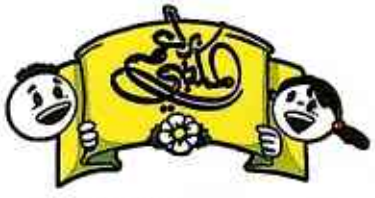

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف 00963112248433 فاكس 00963112248432 ص.ب 31426

الشارقة هاتف 0097165512262 فاكس 0097165512264 ص.ب 3309

e-mail:daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

وَدَاعاً يَا جَدَّتِي

جَدَّتي عُمُرُهَا تِسْعُونَ سَنَةً .. احْتَفَلَتْ قَبْلَ يَوْمَيْنِ بِعِيْدِ مِيْلاَدِهَا .. ارْتَدَتْ أَحْلَى ثِيَابِـهَا .. وَضَعَتْ عَلَى رَأْسِهَا مَنْدِيلاً مُلَوَّناً .. وَزَيَّنَتْ صَدْرَهَا بِعِقْدٍ مِنَ اللُّؤلُؤ ، وَوَضَعَتْ فِي شَعْرِهَا وَرْدَةً حَـمْرَاءَ.. فَجَدَّتي تُـحِبُّ الْـحَيَاةَ ..

أَسْمَعَتْنَا جَدَّتي فِي عِيْدِ مِيْلاَدِهَا الأَخِيرِ حِكَايَاتٍ تَرْوِيـهَا رُبَّمَـا لِلْمَرَّةِ الأَلْفِ ، ومَعَ ذَلِكَ ، سَمِعْنَاهَا بِشَغَفٍ وحُبٍّ .. أَعَادَتْنَا إِلَى الوَرَاءِ أَعْوَاماً طَوِيلَةً .. ذَكَّرَتْنا بِطُفُولَتِنَا ..

وقَالَتْ إِنَّـهَا سَتَرْوِي لَنَا قَصَصًا أُخْرَى جَدِيدَةً عِنْدَ احْتِفَالِـهَا بِالْعِيْدِ الـمِئَةِ مِنْ عُمُرِهَا .. الْعِيْدُ التِّسْعُونَ جَـمَعَ كُلَّ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ .. أَطْفَالاً وشَبَاباً وشُيُوخاً.. فَجَدِّيْ عُمُرُهُ سَبْعُونَ سَنَةً ..

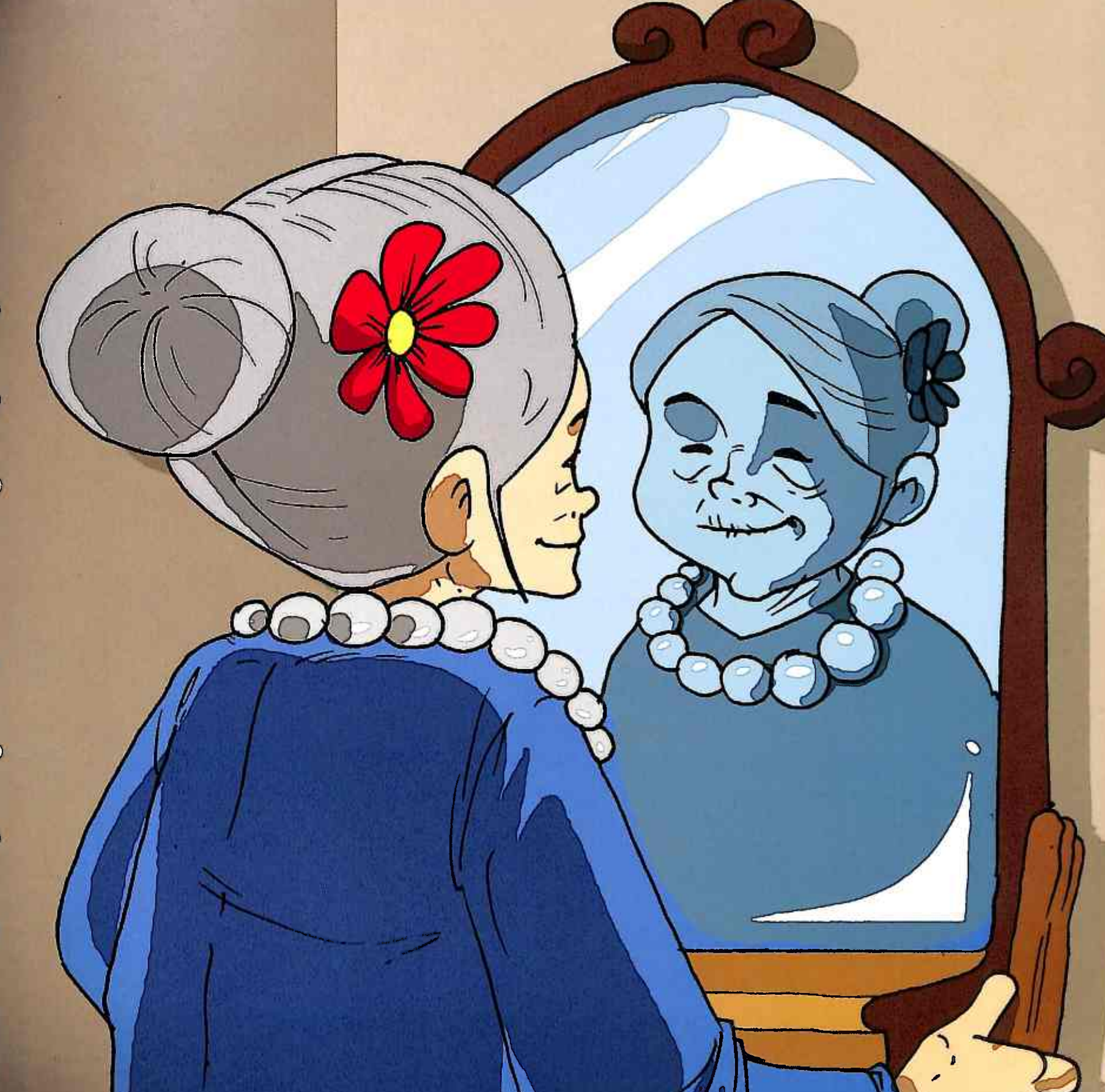

وهِيَ في الـحَقِيْقَةِ لَيْسَتْ جَدَّتِي ، بَلْ أُمُّ جَدِّي ؛ أَعْنِي أَنَّـها جَدَّةُ أَبِي .. وأَبِي عُمُرُهُ خَـمْسٌ وأَرْبَعُونَ سَنَةً..

قَضَيْنَا وَقْتاً طَوِيْلاً ونَحْنُ نَفْتَحُ الـهَدَايا الَّتِي مَلأَتْ دَارَ جَدَّتِي الوَاسِعَةَ .. الكُلُّ تَسَابَقَ لِيُهْدِيَـهَا هَدِيَّةً تُعَبِّرُ عَنْ حُبِّهِ لـهَا.. أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أُرِيْدُ هَدِيَّةً مُـخْتَلِفَةً .. لَـمْ أَشْتَرِ هَدِيَّةً مِنْ مَـحَلٍّ ولا من سوبَّرْ مارْكِتْ .. أَرَدْتُ أَنْ أَصْنَعَ لَـهَا شَيْئاً بِيَدَيَّ أنا.. صَنَعْتُ لـها ثَوْباً مُلَوَّناً بِقِطَعِ قِمَـاشٍ كَثيرةٍ ؛ لِيَبْدُوَ الثَّوْبُ تُـحْفَةً رائِعَةً .. فَأَنا خَيَّاطَةٌ ماهِرَةٌ ، وكُلُّ طالِباتِ مَدْرَسَتِي يَـحْسُدْنَنِي عَلَى ذَلِكَ .. فَقَدْ عَلَّمَتْني جَدَّةُ أَبِي أَشْيَاءَ كَثيرةً ، فهيَ مَدْرَسَةٌ.. بَلْ جَامِعَةٌ لِكُلِّ الكُلِّيَاتِ الـجَامِعِيَّةِ .. قَبْلَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ ، عِشْنَا مَعَ جَدَّتي لَـحَظَاتٍ عائِـلِيَّةً نَادِرَةً ، الـجَمِيعُ حَضَرَ مِنْ كُلِّ الأَنْحَاءِ ، حتَّى عَمِّي الـمُهَاجِرُ في كَنَدا وخَالَتِي الَّتِي تَعْمَلُ طَبِيْبَةً في بَلَدٍ خَلِيجِيٍّ .. وابْنُ عَمِّي الَّذِي يَدْرُسُ في فَرَنْسَا..

وعَمَّتِي الَّتِي تَعِيْشُ في مَدِينَةٍ بَعِيدَةٍ .. كانَ احْتِفَالاً حَقِيقِيّاً.. لَكِنَّنِي في الـحَقيقةِ لا أدْري كَيْفَ اسْتَوْعَبَ مَنْزِلُ جَدَّتي كُلَّ هَذَا العَدَدِ مِنَ النَّاسِ ؟..

بَعْضُهُمْ كانَ يَقْضي الْوَقْتَ في الـحَديقةِ، وبَعْضُهُمْ جَلَسَ في الصَّالَةِ ، وبَعْضُهُمْ خَرَجَ إلى سَطْحِ الـمَنْزِلِ لِيَتَنَشَّقَ الـهَواءَ الـمُنْعِشَ.. وكنَّا جَـميعاً نَحْرِصُ على الْالْتِفَافِ حَوْلَـها قَدْرَ الـمُسْتَطَاعِ ؛ لِنَسْتَمِعَ إلى حِكَاياتِـها الَّتِي تُكَرِّرُها دونَ أنْ تَنْسَى تَفَاصِيْلَهَا ودُوْنَ أنْ تَـمَلَّ مِنْ ذِكْرِهَا.. فِيْمَـا الـمُسْتَمِعُونَ لا يَمَلُّونَ مِنَ الاسْتِمَـاعِ إلَيْهَا ، فَمِنَ النَّادِرِ حَقّاً أنْ تَـجِدَ واحِداً لَـمْ يَسْتَمِعْ إلى قِصَّةٍ مِنْهَا وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً ؛ لِأَنَّـها تَرْوِيـها باسْتِمْرارٍ.. أَمَّا أنَا فَقَدْ كُنْتُ الـمُسْتَمِعَةَ الدَّائِمَةَ .. أَحْفَظُ قَصَصَ جَدَّتِي عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ، وأُطَالِبُها بالـمَزِيدِ وتَكْرَارِ القَصَصِ..

فَهِيَ عِنْدَما تَرْوِي قِصَّةً وتُعِيدُ رِوَايَتَها تَرْوِيـهَا بِأُسْلوبٍ جَدِيْدٍ ، يَبْدُو لِي وكَأَنَّـها الـمَرَّةُ الأُوْلَى الَّتِي تَرْوِيـها فِيْها .. عِشْتُ مَعْ جَدَّتِي طُفُولَتي وصِبَايَ .. بَيْـتُـنَا قَرِيْبٌ مِنْ بَـيْتِهَا.. فَأَبِي مِثْلُ أَبِيْهِ وجَدِّهِ يُـحِبُّونَ الـحَيَاةَ في القَرْيَةِ ويُفَضِّلُونَ العَيْشَ فِيْهَا ، وَمِنَ النَّادِرِ أَنْ يُغَادِرُوا الْقَرْيَةَ إلاَّ لِسَبَبٍ قَاهِرٍ ؛ لِذَا فإنَّنا قَليلاً ما نَبْتَعِدُ عَنْ جَدَّتي ، الَّتي أَعْتَبِرُهَا صَدِيْقَتِي رَغْمَ فارِقِ السِّنِّ بَـيْنِي وبَيْنَها .. والـجَمِيْعُ يَعْرِفُ كَمْ أُحِبُّها..

قَبْلَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ اجْتَمَعَتِ العَائِلَةُ كُلُّها .. كِبَاراً وصِغَاراً ؛ لِيَحْتَفِلُوا بِعِيْدِ مِيْلادِ الـجَدَّةِ العَجُوزِ .. وكَانَتْ تَعِدُهُمْ باحْتِفالٍ أَكْبَرَ في عِيْدِها الـمِئَةِ ..

الْيَوْمَ صَبَاحاً .. وَمِنْ دُوْنِ مَوْعِدٍ مُسْبَقٍ ؛ عادَ أَفْرَادُ العَائِلَةِ ؛ لِيَجْتَمِعُوا جَـمِيْعاً وَلِيُوَدِّعُوا جَدَّتِي الوَدَاعَ الـمُفَاجِئَ .. الأَخِيرَ .

*****

أَحْلَى الأَوْطَانِ

فِي الْبُسْتَانِ.. فِي الْبُسْتَانِ
شَقْشَقَ عُصْفُورٌ رنّانْ
رَفّتْ أوْرَاقُ الأزْهارِ
مَاسَتْ أغْصَانُ الأشْجَارِ
غَنَّتْ أوتَارُ الأَلْحَانِ
فِي الْبُسْتَانِ... فِي الْبُسْتَانِ
شَاهَدْتُ أحْلَى الْأَوْطَانِ
عَانَقْتُ أطْيَافَ النُّوْرِ
رَاقَصْتُ أَزْهَارَ الْجُوْرِي
سَافَرْتُ عَبْرَ الوِجْدَانِ

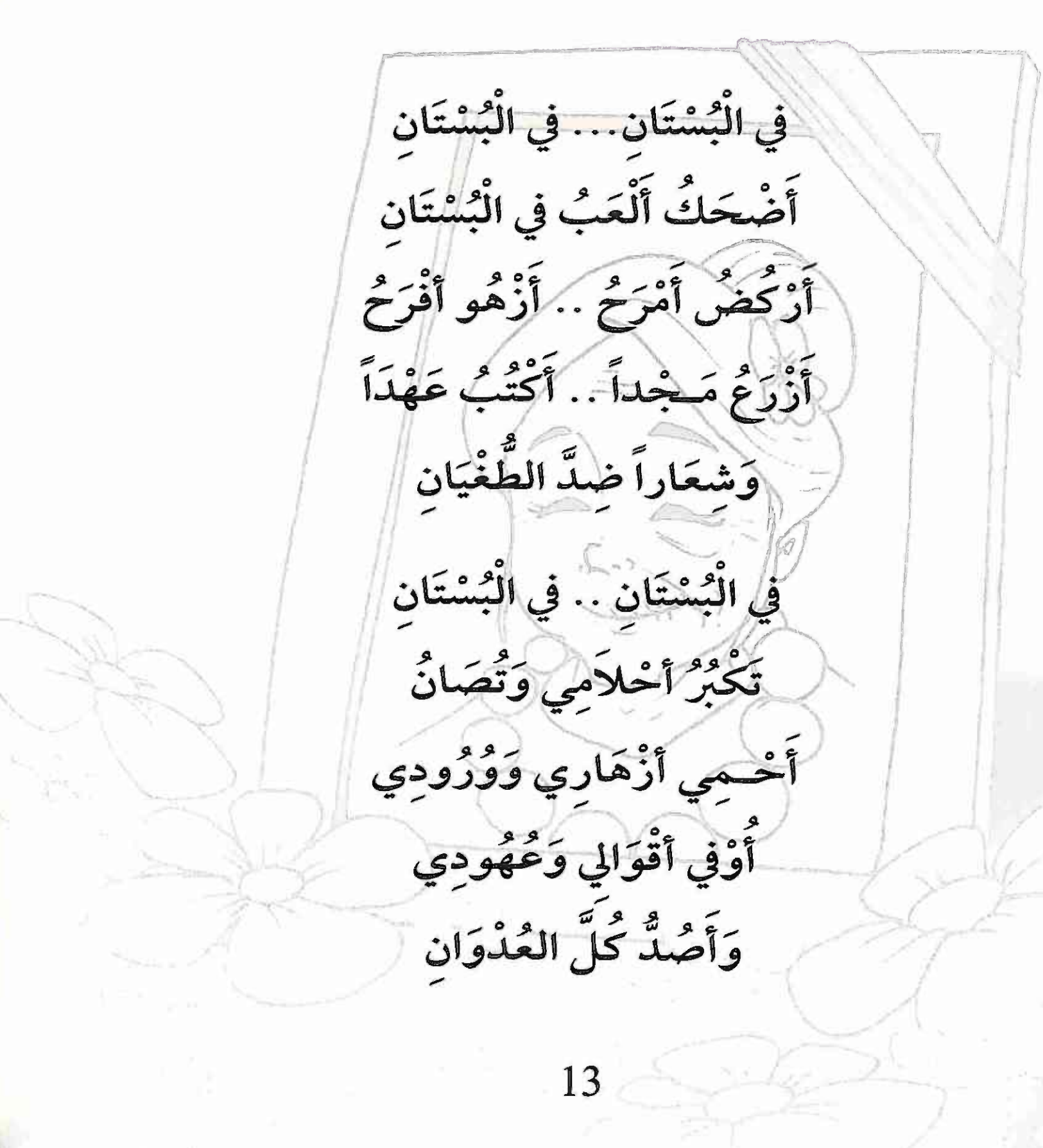

في الْبُسْتَانِ... في الْبُسْتَانِ

أَضْحَكُ أَلْعَبُ في الْبُسْتَانِ

أَرْكُضُ أَمْرَحُ .. أَزْهُو أفْرَحُ

أَزْرَعُ مَـجْداً .. أَكْتُبُ عَهْدَاً

وَشِعَاراً ضِدَّ الطُّغْيَانِ

في الْبُسْتَانِ .. في الْبُسْتَانِ

تَكْبُرُ أَحْلاَمِي وَتُصَانُ

أَحْـمِي أَزْهَارِي وَوُرُودِي

أُوْفِي أَقْوَالِي وَعُهُودِي

وَأَصُدُّ كُلَّ العُدْوَانِ

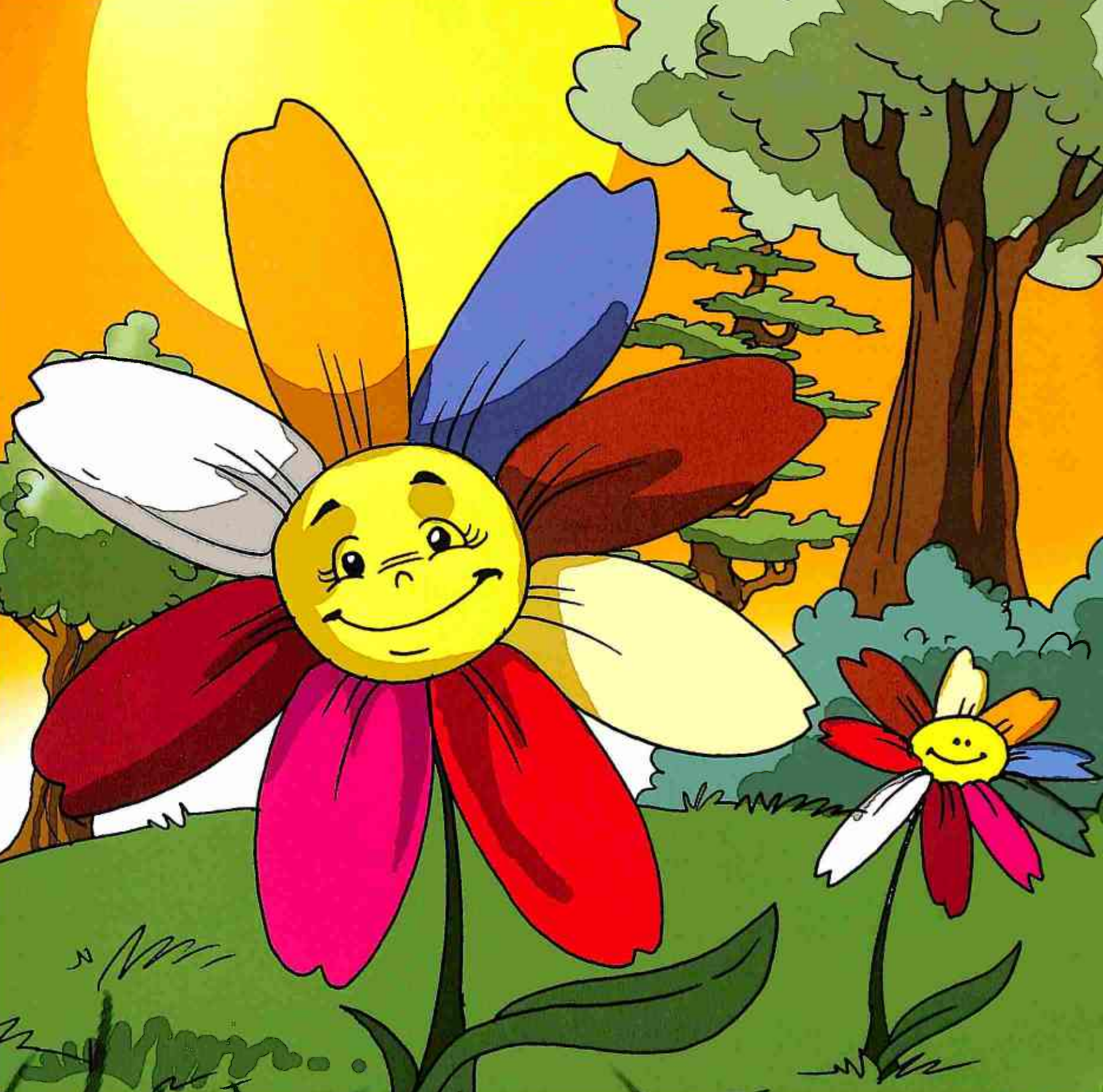

فِي الْبُسْتَانِ.. فِي الْبُسْتَانِ

أَلْعَبُ أمْرَحُ فِي الْبُسْتَانِ

تَغْدُو أيَّامِي أمْـجَاداً

رَايَاتٍ تَعْلُو وجِهَاداً

*****